لوثر، حول السلطة الزمنية وحدود الطاعة الواجبة علينا (1523)

بعد التذكير، في هذا النص المكتوب بالألمانية، أنه على واجب الطاعة للسلطة الزمنية، يؤكد لوثر هنا أنه هناك نوعين من البشر: المسيحيون الحقيقيوم والآخرون. بطبيعة المنطق، إن الأولين لن يحتاجوا لأي قانون ولأي سلطة بشرية. لكنهم نادرون جدًا بحيث أن هذا الممكن يبقى في دائرة التنظير. إن المراجع البيبلية مشار إليها بين مزدوجين.

بداية، علينا أن نؤسس على أرض صلبة للحق الزمني وللسيف، بطريقة أن أي إنسان لا يمكنه أن يشك أنه يوجد في هذا العالم شيء آخر عن إرادة ونظام الله. ها هي المقولات التي تشكل ركيزة هذا الأمر: "لتكن كل نفس خاضعة للسلطة للحكم. لأنه لا سلطة إلا تلك التي تأتي من الله. وكل حكم موجود إنما تمّ تأسيسه من قبل الله. فكل من يقاوم السلطة إنما يقاوم الأمر الذي أعطاه الله. وكل من يقاوم الأمر الإلهي يجلب على نفسه الإدانة" [رسالة إلى الرومانيين، 13، 1-2].

إن هذا الحق بالسيف لطالما كان موجودًا منذ بدء العالم. لأنه عندما قاوم قايين بقتل أخيه هابيل، اعتراه خوف كبير من أن يتم قتله لدرجة أن الله أصدر منعًا خاصًا في هذا الخصوص وأمر بتعليق حكم السيف بسببه، بحيث لا يمكن لأي شخص أن يقتله. وهم لم يكن ليكون لديه هذا القلق لولا أنه علّم آدم أن يقتل كل من هو قاتل [إشارة إلى الخلق، الفصل 4]

علينا الآن أن نقسم أطفال آدم وكل الناس إلى فئتين: الأولون الذين ينتمون إلى مملكة الله، والآخرون الذين ينتمون إلى ملكوت هذا العالم. من ينتمون إلى مملكة الله، هم الذين يؤمنون حقًا بالمسيح والذين يخضعوا له. لأن المسيح هو الملك وهو سيد مملكة الله، كما يقول المزمور 2 وكذلك كل الكتابات؛ وهو أتى إلى العالم لكي يفتتح مملكة الله ويؤسسه في هذا العالم. لهذا أعلن وهو واقف أمام بيلاطس: "مملكتي ليست من هذا العالم، ومن ينتمي إلى الحق هو فقط من يستطيع أن يسمع صوتي" [يوحنا، 18، 36]. وفي الإنجيل، هو يشير دومًا إلى مملكة الله ويقول: "توبوا، فإن ملكوت الله آت" [متى، 3، 2]. وأيضًا "إبحثوا أولًا عن مملكة الله وعدله" [متى، 6، 33]. وأيضًا هو يدعو الإنجيل إنجيل مملكة الله، لأنه هو الذي يعلّم، ويحكم ويهتمّ بمملكة الله.

وعليه: هؤلاء الأشخاص ليسوا بحاجة أبدًا لسيف زمني، ولا للحق. ولو كان العالم لا يحتوي إلا مسيحيين، أي مؤمنون صادقون، لما كان بحاجة لأمراء، ولا لملوك، ولا لأسياد، ولا لسيف ولا لحق. لأنه، ماذا يمكن لكل هذا أن يفيد؟ ذلك أن الروح القدس موجودة في قلوبهم ليعلّمهم ويدفعهم كي لا يأذوا أحدًا، وليحبوا كل العالم، وليعانوا بإرادتهم وبفرح المظالم المتأتية من كل دب وصوب، وحتى الموت. [...]

وهناك من ينتمي إلى مملكة هذا العالم وهم خاضعون للقانون كل من هم ليسوا بمسيحيين. وبما أن المؤمنين هم قليلو العدد، وأنا الأقلية فقط هي من تتصرّف وفق الطريقة المسيحية، فإن الله قد وضع لكل من ليس قادرًا على مقاومة الشر، إضافة للشروط المسيحية ومملكة الله، حكومة أخرى واضعًا إياهم تحت حكم السيف وذلك كي لا يكونوا قادرين على اتباع ميولهم الشريرة، ولكي إذا قاموا بتنفيذ هذا الشر أن لا يقوموا بذلك من دون خوف. يشبه الأمر تمامًا عندما نقوم بتقييد حيوان متوحش بالسلاسل والقيود من أجل منعه من عض أو تمزيق أحد آخر بسبب طبيعته، حتى ولو كان هذا الحيوان لديه الرغبة في ذلك؛ بالمقابل، إن حيوانًا مدجنًا ليس بحاجة لهذه السلاسل ويبقى مسالمًا من دون أية قيود.

لأنه، إن لم الأمر كذلك، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن العالم بأكمله هو سيء وأنه من كل ألف إنسان نجد فقط وبالكاد مسيحيًا واحدًا، فكلّ منهم سيقوم بافتراس الآخر بحيث لا يستطيع أحد أن يهتمّ بإمرأة أو أطفال والتغذي وخدمة الله وسيتحوّل العالم إلى صحراء [...].

من المفيد هنا الملاحظة أن الفئتين من أبناء آدم، حيث أن الأول، وهو الأعلى، موضوع تحت حكم المسيح ومملكة الله، والآخر موضوع تحت سلطة مملكة هذا العالم، لديهما نوعين من القوانين. ذلك أن كل مملكة لها قوانينها وتشريعها؛ فلا يمكن لأي مملكة أو حكومة أن تستمر من دون قوانين، كما برهنته الخبرة اليومية. الحكم الزمني يمتلك قوانينًا لا تُعنى إلا بالأجساد والممتلكات وكل ما هو موجود من أشياء خارجية تنتمي إلى الأرض. أما بالنسبة إلى النفوس، فإن الله لا يستطيع ولا يريد أن يترك لأي إنسان غيره حق الحكم. لهذا، عندما يقوم الحكم الزمني بإعطاء نفسه الحق بأن يعطي قوانين خاصة بالنفوس، فإنه يكون يتعدى على حكومة الله ويقوم بإفساد النفوس [...].

من ناحية أخرى، عليك أن تعلم، أنه منذ بدء العالم، إن الأمير الحكيم كان عصفورًا نادرًا، والأمير التقي كان أندر منه. بشكل عام، إن الأمراء هم الأكثر خساسة وأسوأ الأوغاد الذين وجدوا على الأرض. وعلينا دائمًا أن ننتظر الأسوء من ناحيتهم، ولا نأمل منهم أي خير، خاصة في الشؤون الإلهية التي تمس خلاص النفوس. أنهم حراس وجزارو الله، وإن الغضب الإلهي يستعملهم من أجل معاقبة الشريرين ومن أجل المحافظة على السلام الخارجي".

مقتطف من مارتن لوثر، الأعمال، الجزء الرابع، جنيف، لابور وفيدي، 1958، (ص. 15-19، 31 و 37).